جذور فكر القاعدة

19-5-2003

والخلاصة التي نصل إليها أن الشباب السلفي حين يخوض العمل الاسلامي بعيداً عن علمائه وأيضاً بتقصير من علمائه فإنه يصبح لقمة سهلة لأبناء المناهج الأخرى, ولذلك نرى أثر الحوار والنقاش مع العلماء السلفيين الكبار كيف نتج عنه تحول كبير في منهج كبار الدعاة في السعودية ويمكن اعتبار موقفهم الأخير من تفجيرات الرياض نموذجاً على ذلك

بقلم أسامة شحادة

يدور جدل حاد الآن في أوساط المثقفين والسياسيين في العالم العربي حول تنظيم القاعدة، في هذا السياق يبرز تساؤل رئيس حول أيدلوجيا التنظيم ومن هم قريبون منه : فيما إذا كان تفكيرهم السياسي هو إفراز طبيعي للمنهج السلفي الذي يدرس ويرعى من المملكة العربية السعودية ؟ أم أنه نتاج عملية تحول أو تفاعل بين الفكر السلفي و فكر آخر أو معطيات مختلفة...

في منتصف فبرايرعام 1998 م أعلن عن قيام (الجبهة الإسلامية العالمية لقتال اليهود والصليبيين) . وهي تحالف ضم(القاعدة) ابن لادن وجماعة الجهاد المصرية أو على الأقل الظواهري وجزءًا من الجماعة وثلاث جماعات اسلامية من باكستان وبنغلادش . وبعدها تم تفجير سفارتي أمريكا في نيروبي ودار السلام في أغسطس من نفس العام لتبدأ موجة من التفجيرات ضد المصالح الأمريكية بلغت قمتها في تفجيرات 11 أيلول في نيويورك وواشنطن. وأصبحت الجبهة العالمية التي اختزلت في تنظيم القاعدة على رأس الأحداث والأخبار في العالم . فمن أين أتى هذا الفكر وكيف نما ؟

من المعلوم أن القاعدة يمكن أن تختزل في شخص قائدها وهو أسامة بن لادن , وأسامة بن لادن هو أحد المجاهدين السعوديين في أفغانستان وهو من الأثرياء الذين زهدوا في ثرائهم من أجل الجهاد وهذه كانت بداية شهرته وقوته !!. وكل من تابع الجهاد الأفغاني في بدايته يعرف الدور المهم الذي اضطلع به ابن لادن في دعم المجاهدين بالمال والمعدات والأسلحة و تعاونه مع عبد الله عزام –رحمه الله- في رعاية المجاهدين العرب قبل أن يستقل عنه . وأسامة حين ذهب إلى أفغانستان فعل ذلك بدافع الدعوة السلفية التي يحملها والتي تدعو إلى الجهاد ضد الكافر الأصلي إذا احتل بلداً من بلاد الإسلام كما ذهب الكثير من شباب هذه الدعوة المباركة. وفي أفغانستان كانت هناك فرصة ذهبية لتقديم نموذج إسلامي يحتذى به في الدعوة والجهاد وبناء الدولة الإسلامية المنشودة , لكن عدم وعي قادة العمل الاسلامي بذلك سبّب إجهاض هذه الفكرة على كل المستويات الجهادية والدعوية وتكوين الدولة وليس هنا مكان شرح ذلك. ولكن يهمنا التركيز على أن أفغانستان أضحت في تلك المرحلة محطة لكل الفارين من بلادهم بسبب الصدام مع حكوماتهم وكذلك كانت مركز إستقبال كل أجهزة المخابرات , والعجيب أن بيشاور حوت كل الأجناس والهيئات ولكن خلت من العلماء !!

وهذا التواجد لأفراد الجماعات الاسلامية المختلفة المناهج والمشارب لم يخدم الجهاد الأفغاني كثيراً بل كان سبباً في إثارة كثير من المشاكل لديهم سوى ماسببه من إنحرافات لدى الكثيرمن المجاهدين الذين لم يكن همهم سوى الجهاد , و ينقل لنا عثمان عبد السلام نوح في كتابه (الطريق إلى الجماعة الأم) عن دور أفراد هذه الجماعات الاسلامية في بيشاور فيقول (والحقيقة أن هؤلاء قد جاءوا فعلاً لغرض الجهاد ولكن رأوا

بعض التصرفات غير الشرعية في نظرهم فشككهم في مشروعية الجهاد الأفغاني فجلسوا في بيوت الضيافات التي يشرف عليها العرب وكان بعضهم في ضيافة بيت الأنصار وبعضهم في ضيافة السلفية وصار أكثر حديثهم ومناقشتهم في قضية الحكام وتكفيرهم ووصل بعضهم إلى تكفير العلماء المشهورين بدعوى موالاة الحكام وقد حدثت معارك كلامية بينهم وبين المسؤولين عن الضيافات فقام المغرضون بنسبة هذه التصرفات إلى السلفية ليصرفوا الشباب عن هذه الدعوة الصافية ويشككوهم فيها وقد أطلعت على منشور تم توزيعه في بيشاور صادر عن هؤلاء الشباب يحضون فيه العرب على الإنصراف للجهاد في بلادهم)[1][1] . وهذه شهادة من رجل عاش هناك وشارك في الجهاد , والجماعات المقصودة هي الجماعات المصرية والجزائرية بشكل أخص وبعض السوريين وغيرهم .

وكان من ضمن الذين جاءوا إلى بيشاور أيمن الظواهري الذي خرج من القاهرة وتوجه إلى السعودية فترة ثم اتجه إلى أفغانستان منتصف عام 1986 حتى 1990 . بعد أن كان قد زار أفغانستان مرتين في عامي 80-81 في مهام إغاثية قاربت مدتها سبعة أشهر تحدث عنها الظواهري في كتابه فرسان تحت راية النبي صلى الله عليه وسلم فقال (باحتكاكي بساحة الجهاد الأفغاني تبين لي منذ عام 1980 مدى ثراء هذه الساحة ومدى النفع الذي تقدمه للأمة المسلمة عامة وللحركة الجهادية خاصة , وأدركت ضرورة الاستفادة من هذه الساحة ....) إلى أن يقول (اتضحت لي حقائق في غاية الخطورة لا بد من تسجيلها أهمها

1[1] من كتاب الطريق إلى الجماعة الأم ص 202 الطبعة الأولى 1441 هـ .

أن الحركة الجهادية في حاجة إلى ساحة جهادية تكون لها بمثابة المحضن الذي تنمو فيه البذور النابتة وتكتسب فيها خبراتها العملية والقتالية والسياسية والتنظيمية)[2][2] , وواضح هنا الرؤية المصلحية لحركته وليس لخدمة القضية الأفغانية.

ولذلك بعد أن خرح الظواهري من السجن استقر في أفغانستان المحضن المناسب لرعاية النبتة الصاعدة , وهناك كان اللقاء الأول مع ابن لادن زعيم القاعدة لاحقاً , وفي هذه اللحظة بدأت فكرة القاعدة بالنمو حتى تشكلت في صورتها النهائية عام 1998 بإعلان الجبهة ثم اختزلت في القاعدة .

ومر هذا النمو بمراحل متعددة من التعاون والتصادم والتقاطع وكان التأثير فيه متبادلاً بين الظواهري وابن لادن لكن على أرضية الظواهري ! . فقد كتب الظواهري في أحد أعداد نشرة (كلمة حق) : " جاد الشباب بأرواحهم وضن الأغنياء بأموالهم " في إشارة لابن لادن كما ينسب ذلك الزيّات لمقربين من الجهاد فترة عامي 93 -95 [3][3] .

أما مسار اللقاء الفكري بين الظواهري وابن لادن فيصفه ضياء رشوان بأن (العلاقة الحقيقية بين أيمن الظواهري وأسامة بن لادن ترشح الأول لموقع بارز في الجبهة ربما يصل إلى قيادتها الفكرية والعملية , فالظواهري ذو خبرة طويلة في الحركة الاسلامية المتشددة ضمن عدد من جماعاتها تعود إلى عام 1966 , بينما لا تعود خبرة ابن لادن سوى إلى بداية الثمانينات ... فالجبهة العالمية لا تضم سوى تنظيم واحد حقيقي ذي خبرة

2[2] نقلاً عن أيمن الظواهري كما عرفته للزيات ص 81

3[3] نقلا عن أيمن الظواهري كما عرفته للزيات ص 101

وأطر فكرية وتنظيمية وعملية محددة هو "جماعة الجهاد" .... ويصعب اعتبار تنظيم القاعدة تنظيماً حقيقياً بقدر ما هو تجمع لاسلاميين حول ممارسات بن لادن وإمكاناته[4][4] .

ولزيادة الإنصياح أنقل رؤية منتصر الزيات في هذه النقطة الذي يرى أن (الظواهري استطاع أن يحدث تحولات جذرية واستراتيجية في فكر أسامة بن لادن بعدما التقيا معاً في أفغانستان منتصف عام 86 بسبب العلاقة الانسانية بينهما التي وصلت إلى الصداقة , واستطاع الظواهري أن يقنع ابن لادن بالفكر الجهادي الإنقلابي وحوله من داعية سلفي يهتم بأمور الإغاثة إلى مقاتل جهادي يعني بأحكام الجهاد ضد الطواغيت وضرورة إجلاء القوات الأمريكية عن بلاد العرب , وزرع الظواهري حول ابن لادن نخبة من أخلص خلصائه ممن صاروا لاحقاً أبرز العناصر المعاونة لابن لادن وقادة تنظيم القاعدة , وهؤلاء كانوا يدينون بالولاء للظواهري شخصياً –وتاريخياً- مثل علي الرشيدي (أبو عبيدة البشيري) وأبو حفص (محمد عاطف) ( ).

ويكمل الزيات (لكن ينبغى أن نقرر في الوقت نفسه أن تأثير الظواهري في فكر ابن لادن وخطته الحركية لم يكن أحادي الجانب وإنما الإنصاف يلزمنا أن نقرر أن أسامة بن لادن أثر أيضاً في فكر ومنهج الظواهري –وجماعة الجهاد- حين وجه النصح بضرورة وقف العمليات المسلحة داخل مصر وأن يتحالف

4[4] انظر كراسة الأهرام الاستراتيجية رقم 92 بعنوان تحولات الجماعات الاسلامية في مصر لضياء رشوان ص 40 .

معه ضد عدو مشترك هو امريكا وإسرائيل , وكان هذا بعد عودتهما إلى أفغانستان مع دخول طالبان كابول)[5] .[5]

وهذا التأثير لابن لادن هو لازم الاقتناع بالفكر الانقلابي عند الظواهري وليس هو أصل فكره السلفي ويتضح هذا أكثر من ملاحظة خلو قيادات القاعدة من السلفيين وإقتصارها على شخصيات مصرية ليست معروفة بالعلم الشرعي حتى الظواهري ولم يبرز في القيادة أحد من الجزيرة العربية سوى أبو غيث وهو أيضاً ليس من طلبة العلم المعروفين في الكويت. وتبقى هنا مسألة دور عبد الله عزام رحمه الله في تغيير فكر ابن لادن ويعرضها الزيات بقوله : (إن عزام كان يستخدم ابن لادن في أغراض إغاثية ومالية لدعم المجاهدين في الحرب ضد الروس وكان تأثر ابن لادن به مرتبط بالحدود السياسية والفكرية والجغرافية بالجهاد ضد الروس لتحرير أفغانستان لأن عزام كان حريصاً على عدم التصادم مع الحكومات العربية التي تدعمه ويمكن أن نقول أن ذلك ساعد الظواهري كثيراً في التحولات الجذرية داخل فكر بن لادن)[6][6]

ولعل هذا هو سبب إنفصال بن لادن عن مكتب الخدمات (عبد الله عزام) وتأسيسه بيت الأنصاربعيداً عن عبد الله عزام مع بقاء نوع من التعاون بينهما. وهكذا يتبين أن فكر القاعدة تكون من لقاء ابن لادن والظواهري خاصة وغيره من الجماعات الاسلامية الوافدة والتي لا تعرفها الجزيرة العربية مع غياب تواجد لعلماء ومفكرين سلفيين في بيشاور وفي وقت كانت تعج

5[5] الزيات ص 104-105

6[6] الزيات ص 104-105 .

بكل الأفكار والإتجاهات مما سهل لها استقطاب العديد من الشباب السلفي وتحويله إلى فكر ثوري. ولمزيد من فهم فكر الظواهري ومنابته نضع الملاحظات التالية :

1-نجد أن الظواهري تبنى تكفير الدولة والانقلاب العسكري عام 1966م وكان عمره ستة عشر عاماً وأسس تنظيماً لذلك ![7][7]

2-كان متأثراً بكتابات سيد قطب –رحمه الله- ثم بصالح سرية الذي يصنفه الظواهري بأنه (كان محدثاً جذاباً ومثقفاً على درجة واسعة من الإطلاع والمعرفة وكان حاصلاً على درجة الدكتوراه في التربية من جامعة عين شمس كما كان متظلعاً في عدد من العلوم الشرعية ... وبمجرد اسماعى له أدركت أن للكلام وقعاً أخر و أنه يحمل معاني أوسع في وجوب نصرة الاسلام وقررت أن أسعى للقاء هذا الزائر ولكن كل محاولاتي للقائه لم تفلح) وكان للظواهري ملاحظات عقائدية على منهج سرية [8][8]، [9][9] .

و صالح سرية هو منفذ عملية الكلية الفنية في مصر عام 1974 وهو من نشطاء حزب التحرير ويصفه بعض المراقبين بأنه كان متأثراً بأفكار علي شريعتي الإيراني اليساري[10][10] .

7[7] الزيات ص 36

8[8] الزيات ص 47

9[9] الزيات ص 48

10[10] الاسلام السياسي في مصر لهالة مصطفى ص 141

3-إن جماعات الجهاد التي نشأت في السبعينات كانت ترتكز على جهود صالح سرية عام 1974 السابق ذكره وبعده على يد سالم الرحال وهو فلسطيني أيضاً مثل صالح سرية , وكان طالباً في الأزهر وهو أيضاً من حزب التحرير!! ويفصل هذه النقطة كمال حبيب الذي تولى القيادة بعد هروب الرحال من مصر[11][11] فيبين ما يلي : (ومجموعة ثالثة ذات مواصفات خاصة هي مجموعة " سالم الرحال " وهو طالب دراسات عليا في جامعة الأزهر بكلية أصول الدين وعلى دراية كبيرة بالفقه والعقيدة والحركة إذ كان من قبل عضواً بحزب التحرير الاسلامي , لكنه خرج منه لتحفظه على منهجه الفقهي والعقدي , لكن ظلت مناهج السياسة والحركة لحزب التحرير جزءاً من خطته). ثم يواصل كمال حبيب بيان الدور المحوري للرحال في جماعات الجهاد في انبعاثها الثاني (هذه المجموعة " مجموعة الرحال " كانت عبارة عن مجموعات أخرى عدة تتبنى الفكر الجهادي , وهي سلفية العقيدة ولا ترى أسلوب الثورة الشعبية وإنما الانقلاب العسكري باعتباره أقرب للروح الاسلامية لأنه لا يؤدي إلى الهرج والدماء والقتل وكانت هذه المجموعة تضم أكثر العناصر وعياً وخبرة , فقد كانت تضم أيمن الظواهري وعصام القمري .... وكان سالم الرحال هو الذي يربط بينهم)[12][12].

وهكذا يتضح لنا البعد التحريري في فكر الظواهري وحتى فكرة الانقلاب العسكري وتكفير النظام وهذا أصل فكر حزب التحرير الذي يكفر كل الأنظمة ويدعو لإعادة الخلافة , عن طريق طلب النصرة و قيام أعضاء منه بانقلاب عسكري مثل بعض المحاولات

11[11] نفس المصدر 150

12[12] الحركة الاسلامية من المواجهة إلى المراجعة ص 38

في الأردن قديماً. وإن هذا الفكر الانقلابي عند الظواهري هو الذي جعله يترك جماعة أنصار السنة المحمدية بعد أن تربى فيها [13][13] , فبقي الظواهري سلفياً في العقائد والفقه لكنه انقلابي في العمل والطريق وهذا ما تكرر مع بن لادن فيما بعد .

والخلاصة التي نصل إليها أن الشباب السلفي حين يخوض العمل الاسلامي بعيداً عن علمائه وأيضاً بتقصير من علمائه فإنه يصبح لقمة سهلة لأبناء المناهج الأخرى, ولذلك نرى أثر الحوار والنقاش مع العلماء السلفيين الكبار كيف نتج عنه تحول كبير في منهج كبار الدعاة في السعودية ويمكن اعتبار موقفهم الأخير من تفجيرات الرياض نموذجاً على ذلك [14][14]. وبهذا يتضح عدم صحة نسبة فكر القاعدة للدعوة السلفية بل هو ينتسب إلى حزب التحرير! , وفي هذا إشارة لغزو بعض الأفكار صفوف جماعات أهل السنة وهذا له آثار وبيلة .

13[13] نفس المصدر ص 33

14[14] يمكن العودة إلى البيان الذي نشره موقع الاسلام اليوم عن التفجيرات